

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن هذا الدين جاء ليخرج للعالمين خير أمة أخرجت للناس، لا لتتكفى على ذاتها بل هي أمة مخرجة لغيرها، فكانت أمة خير وأمة وسطا تصلح أن تتخذها الأمم أسوة وقدوة وقيادة لها، تقوم على منهاج بين هو أحكم المناهج وأقومها وأسدّها، وشريعة هي أصلح الشرائع وأشملها وأكملها وأعمّها، وتصور متفرد متميز عن سائر التصورات التي عرفت البشرية في تاريخها كله، تصور متميز بخصائصه، متفرد بمزاياه ومقوماته، موضح لأهم الدعائم التي ينبغي أن يقوم عليها التصور الصحيح الذي يصلح أن يتحول إلى قوة دافعة في ضمير الإنسان قادرة على تحريكه باتجاه إيجاد وتحقيق الفعل الحضاري، وإبراز الشهود الحضاري لهذه الأمة على الدنيا كلها.

والمنهج الإسلامي في بناء الحياة فكرًا وعقيدة وثقافة وعلماً وعلاقات ومعاملات وسلوكًا وأخلاقًا وتصرفات وممارسات، هذا المنهج — بكل جوانبه — منهج رباني أوحاه الله تعالى إلى رسوله، بدأت حلقاته بالنزول منذ أن بدأ الرسل يتعاقبون على هذه الأرض يندرون أقوامهم ويهدونهم إلى صراط العزيز الحميد حتى جاء خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام بالرسالة الخاتمة، والمنهج الكامل، والشرعة التامة وأعلن للبشرية كلها ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة: ٣.

وأعلن للعالمين كلها ﴿.. إن الدين عند الله الإسلام﴾ آل عمران: ١٩، ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران:

فالمناهج منهاج الإسلام والشرعة شرعته. وهذا المنهاج لم ينبثق عن اجتهادات بشرية أو تصورات فلسفية وإن كان الفكر البشري والاجتهاد الإنساني ضروريات لفهم هذا المنهاج وإدراك خصائصه ومقوماته، ومعرفة كيفية تحكمه في حركة الحياة وتوجيهها. وربانية هذا المنهج أعطته جملة من الخصائص أهمها خاصية (التوازن) الشامل في سائر عناصر المنهج ومقوماته، وهذه الخاصية قد صانت المنهج الإسلامي من سائر أنواع الاندفاع والتطرف، والجنوح والانحراف، وتبرز خاصية (التوازن) في المنهج الإسلامي في مستويات عديدة، منها التوازن بين مصادر المعرفة: فالمنهج الإسلامي يقرر للمعرفة مصدرين: الوحي والوجود، ويتخذ من العقل والحواس وسائل إدراك. وقد يمثل العقل نفسه مصدرًا في بعض الأحيان لبعض أنواع المعارف، والإسلام — في شموله وتوازنه — لم يغفل مصدرًا واحدًا من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره، ولم يضعه موضعه اللائق به، ودرجته الجدير بها، كما لم تسمح خاصية التوازن فيه بطغيان أي مصدر على مصدر آخر فالوحي — وإن كان أوثق المصادر وأقواها — له مجالاته وميادينه، ومواضع هيمنته، والكون والحياة والأحياء كذلك مصادر معرفة — بعد الوحي — لكل منها ميدانه وإلى كل مصدر من هذه المصادر وُجّه الإنسان لتلقي المعرفة، فهو مطالب بأن يتلقاها من كتاب الله المنزل القرآن وكتاب الله المفتوح الكون، في تناسق وتوازن لا تشوبه شوائب التنافي أو التعارض والتصادم: فاعتبار الوحي الإلهي المعجز الأصل الصادق المهيمن مصدرًا من مصادر المعرفة لا يلغي دور العقل الإنساني، ولا يعطل دور الإدراك البشري. كما أن وجود الكون لا يلغي دور العقل، بل يفتح أمامه أبوابًا للمعرفة لا يأتي عليها الحصر.

لقد ابتليت البشرية في الماضي كما ابتليت في الحاضر بركام هائل من الفلسفات والتصورات والأوهام التي جعلت منها معتقدات أثرت على توازنها في مختلف الجوانب. وقد اقتحمت تلك الفلسفات ساحة كثير من الأديان السماوية فأصابتها بكثير من الأمراض التي أفقدتها نقاءها وصفاءها وتوازنها. ولذلك استقبلت تلك الأمم الإسلام بتصوره وعقيدته ومنهجه وشرعته استقبال الأرض العطشى الهالكة للحياة فاهتزت وربت وعاد للبشرية من خلال المنهج الإسلامي توازنها واستقامتها. وبدأت مسيرة الهدى من جديد تنطلق لبناء الحياة الربانية الهادية المهتدية لتقوم في

الوجود خير أمة أخرجت للناس، أمة الوسطية والتوازن، وتنطلق نحو بناء عالمية الإسلام الكونية ذات المنهج المتميز بربانيته وثباته وتوازنه، وواقعيته وقيامه على عقيدة التوحيد الخالص.

ولكن سنن الله ماضية في كونه وخلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا. فوقع في طور من أطوار التاريخ الإسلامي أن بدأت جملة من الانحرافات عن هذا المنهج الإلهي، وتغير الأمر بعد النبوة القائمة على المنهج، والخلافة القائمة على منهاج النبوة الى فصام بين قيادتي الأمة، القيادة الفكرية العلمية وقيادتها السياسية التي جاءت إثر ما يشبه الانقلاب العسكري القبلي على منهاج الخلافة الراشدة في فترة كانت الحياة الإسلامية قد بدأت تحتك بقوة ببقايا الثقافات والحضارات الآفلة التي بدأ الفتح الإسلامي يعلن نهايتها.

فالفصام بين القيادتين الفكرية العلمية والسياسية العسكرية في الأمة الإسلامية أصاب (منهج الفكر الإسلامي) بالصميم حيث بدأت سلسلة من المعارك والنزاع على الشرعية بين الفصيلين القائدين استعملت فيها نصوص الكتاب والسنة، والتفسيرات والتأويلات والاجتهادات البشرية المختلفة بشكل لا عهد لمنهج النبوة والخلافة الراشدة به، ووظفت فيها مختلف الأسلحة بما فيها بقايا الشقاق التي عثر المسلمون عليها في البلاد المفتوحة. ولما اكتملت الفتوحات الأساسية الكبرى وامتدت الرقعة الإسلامية لتضم أهم مواطن الحضارات والثقافات القديمة، بدأت حركة ترجمة واسعة النطاق لبقايا تلك الثقافات وبرزت الاختلافات المذهبية، والمقالات الكلامية، والجدل الحاد بين الفرق التي لم تستطع أن تهتدي لبناء الفكر الاجتماعي والمؤسسات القادرة على امتصاص ونفي أسباب الصراع الفكري من داخل الأمة؛ فبدأت بعض قيادات تلك الفرق الثابتة تستدعي الفلسفة الإغريقية والوثنيات الرومانية والمباحث اللاهوتية المترجمة إلى ساحة الصراع والجدال بين المسلمين، وفتن بعض من عرفوا بعد ذلك بفلاسفة الإسلام ببقايا الفلسفة الإغريقية وبخاصة شروح فلسفة أرسطو الذي لقبوه بـ «المعلم الأول» وضموا إلى بحوثهم ودراساتهم الألوهية والنبوة، والخلق، بل لقد بذلت جهود هائلة من بعض هؤلاء للتوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية وبين المنهج الإسلامي والتصور الإسلامي وعقائد الإسلام، غافلين أو

متغافلين عن أن الفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن تلك الأساطير، وأن هذه الفلسفة مسؤولة إلى حد كبير عن إفساد المسيحية وتحريفها بعد أن خالطتها وأن الشراح المسيحيين ضموا كل ذلك التراث الوثني إلى المسيحية بعد أن ألبسوا أولئك الفلاسفة ثياب التدين والتوحيد. وإذا ببعض من عرفوا بـ «فلاسفة الإسلام» لم يكفهم أن يمنحوا أرسطو لقب «المعلم الأول» بل حاولوا التوفيق بين عناصر العقيدة الإسلامية وآراء ومذاهب أولئك الذين سموهم بالحكماء «ولست أدري إذا كان أرسطو يلقب بالمعلم الأول لهؤلاء فما هو موقع رسول الله ﷺ منهما! أيعدونه معلماً ثانياً أو ثالثاً؟ لقد ترك الإغريق أسطورة وثنية حول قضية المعرفة تركت بصماتها على فلسفات كل أولئك الذين تأثروا بفلسفتهم، تصور تلك الأسطورة الإغريقية كبير الآلهة (زيوس) غاضباً على الإله (برومثيوس) لأنه سرق النار المقدسة أي (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة الذي لم يكن يريد للإنسان أن يعرف لكلاً يرتفع مقامه فيهبط مقام «كبير الآلهة» ويهبط معه مقام «الآلهة» كلهم، ومن ثم أسلمه إلى أفضع انتقام وحشي رهيب»^(١).

كما روى العبرانيون أسطورة مماثلة حول الصراع بين الإنسان والإله على المعرفة. فالفلسفات القديمة ووريثتها الفلسفة الغربية المعاصرة، فلسفة صراعية لا تعرف التوازن بأي شكل من الأشكال، بل الصراع والثنائيات المتصارعة المتحاربة دائماً سداها ولحمتها.

فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة أو «الهيولي»، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز — كله — من الهيولي. وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بقدر ما تأخذ من العقل، وتهبط بقدر ما تأخذ من الهيولي. فالهيولي مقاومة للعقل المجرد، وليست موجدة بمشيئة من العدم»^(٢). والصراع بين العقل والمادة من ناحية وبين العقل والآلهة من ناحية

(١) خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب. دار إحياء الكتب العربية/ عيسى الباني الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥.

(٢) المصدر نفسه وكتاب (الله) للعقاد، ص ١٣٧.

أخرى لا ينتهي. وقد دخلت هذه التصورات المخاططة ساحة الفكر الإسلامي فإذا بمعادلة (التوازن) بين الوحي والعقل تضطرب في ذلك الوقت المبكر من تاريخنا وإذا بنا نرى بعض الفرق تنقسم بين محقِّر للعقل، مقلل من شأنه، محجّم لدوره وبين مبالغ في تقدير طاقاته وقدراته، وطغى الصوتان المرتفعان على صوت «الوسطية الإسلامية الجامعة»^(٣) التي جمعت بين (النقل والعقل) بتوازن عجيب جعل كلاً منهما ضروريًا للآخر ومكملاً لدوره.

فلقد تفرد المنهج الإسلامي بهذه النظرة المتوازنة التي جعلت «النقل» يخاطب «العقل» ويرتاد له المواطن التي لا يُحسن ارتيادها ولا يملك أدواتها من عالم الغيب الفسيح. وجعلت «العقل» يعقل النقل ويفهمه، ويستدل له، ويرتاد له أفضل سبل التطبيق والتنزيل على الواقع فلا أحد منهما يمكن أن يكون بديلاً للآخر، ولا أحد منهما يمكن أن يغني عن الآخر. وكل منهما من عند الله — تعالى — فالنقل هبة الله تعالى للبشرية ليهديها سبلها ويخرجها من الظلمات إلى النور، والعقل — هو الطاقة المستقبلية للوحي القادرة على تلقيه وفهمه، والاستفادة به وتنزيله على الواقع.

لقد حرص الإسلام أشد الحرص على حفظ العقل البشري وتربيته وحدد له مجالات النظر ليصون طاقاته أن تبدد فيما لم تخلق له من البحث في الغيبات التي لا سبيل له إلى الوصول إليها إلاّ بنقل ثابت صحيح، ووضع له المنهج الصحيح للنظر^(٤). وقد ضيق الإسلام مساحة الغيبات التي طالب الإنسان بالإيمان بها إلى حد كبير، وعرض لما عرض له منها بشكل لا يمكن أن يأباه العقل الإنساني أو يستعصي عليه، ثم قاده إلى الإيمان بذلك الغيب ليطمئن قلبه بالإيمان، ويتجه بكليته بعد ذلك إلى عالم الشهادة ينزل عليه هداية الوحي، ويبنى فيه الحضارة، ويحقق العمران، ويقوم بمهام الاستخلاف والأمانة.

ولكن الإنسان ضعيف، ومن ضعفه أنه يفتن بطاقاته وقدراته، «ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع أن يميز بين الأشياء، ويدرك خواصها ويستنبط فوائدها،

(٣) المصطلح استعمله د. محمد عمارة، راجع كتابه «معالم المنهج الإسلامي»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، ١٩٩١، ص ٧٧.

(٤) راجع فصل «تربية العقل» من كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب. دار الشروق الطبعة الثانية عشرة، ١٩٨٩، ج ١، ص ٧٥-١٠٣.

ويشكل صوراً جديدة من المادة التي وجد نفسه محاطاً بها على ظهر الأرض أو في السموات^(٥)، أو بناء أفكار وتصورات.

ويصور ابن حزم فتنة الأقدمين بالعقل فيقول: «هما طرفان: أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل. والثاني قصر فخرج عن حكم العقل، ولا نعلم فرقة أبعد من طريق العقل من هاتين الفرقتين، إحداهما التي تبطل حجج العقول جملة، إن صح ما أوجبه العقل عرفناه بلا واسطة وبلا زمان ولم تكن بين أول أوقات فهمنا وبين معرفتنا بذلك واسطة البتة^(٦)».

ويحاول الإمام أبو حامد الغزالي تصوير المسألة كما هي في وقته فيقول: فإن قلت: فما بال أقوام يذمون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم «العقل والمعقول» إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا «العقل والمعقول» وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله — تعالى — عليه وإن ذمّ فما الذي بعده يحمده؟ فإن كان المحمود هو الشرع فقيم عليك صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم — الذي لا يوثق به — فيكون الشرع أيضاً مذموماً ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإننا نريد بالعقل: ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور: وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ^(٧).

وهكذا انقسم الناس إلى فرق في هذه القضية، واضطربت هذه الحلقة الأساسية من حلقات المنهج الإسلامي. ووقف فريق خلف النقل يتترسون به ضد فريق آخر وقف وراء العقل يجادل عنه وينافح. واستدرج العقل المسلم إلى متاهات

(٥) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٧٦/١.

(٦) إحكام الأحكام لأبن حزم.

(٧) إحياء علوم الدين للغزالي. دار الشعب، القاهرة (د.ت).

كان الله سبحانه وتعالى قد أنقذه منها، وجاء فريق حشوي يتشبث بألفاظ النصوص لا يستعين على فهمها بغير القاموس اللغوي، وصار العقل عنده متهمًا في كل شيء حتى لم تعد له — في نظره — وظيفة أو دور.

وفريق حكم العقل واقتنن به وتجاوز به حدوده، فأعطاه صلاحيات واسعة في الحكم على الأشياء قبل الشرع وبعده، وأغرق في فرضيات لم يألفها العقل المسلم فتكلم في فرضية «شكر المنعم» في حالة عدم وجود الشرع أيكشفها العقل ويوجبها أم لا؟ وفي تكليف المعدوم وفي خلق القرآن ومصدر الحكم على الفعل الإنساني بالحسن أو القبح أهو الشرع أم العقل؟

وافترض وقوع التعارض بين النقل والعقل وقدم العقل فريق وقدم النقل فريق آخر، فنشأ لون جديد من البحوث والدراسات يقوم على تأويل ما توهم المتوهمون تعارضه أو تناقضه مع العقل من نصوص الكتاب أو السنة في «تأويل مشكل القرآن» وفي «تأويل مشكل الحديث»، وكتب في بيان ما بين الشريعة والحكمة جملة من الاتصال، وكتب في «درء تناقض العقل والنقل» ولكن المسألة كانت قد تحولت إلى قضية من قضايا الفكر والعقل المسلم تحتاج بالإضافة إلى البحث العلمي وسائل تربوية تقتلع آثارها من العقل المسلم وتبعد تربيته بشكل يضمن طهارته من آثارها المدمرة، لكن ذلك لم يتم وبقي ملف هذه الحلقة الخطيرة مفتوحاً قابلاً للتوظيف السلبي في كل وقت.

وحيث برزت فتنة الإنسان الحديث بعقله في عصرنا هذا، حين اشتد عجبه بنفسه وغروره بقدرته وهو يرى المخترعات الحديثة والكشوف العلمية، وكيف استطاع تفجير الطاقة الذرية وبناء الصواريخ وغزو الفضاء أصابه المس الذي أصاب (نيتشة) حين أعلن عن موت الإله ومولد الإنسان الأعلى (السوبرمان)^(٨).

ولقد كانت فتنة عمياء جعلت الإنسان المعاصر يؤله عقله، ويسلم له كل مقاليده ليبنى عقلانيته اللادينية الضالة. صحيح أن العقل قادر على الكشف العلمي والاختراع، وقد يستطيع التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر، ولكن هل يستطيع

أن يحدد بدقة وحيدة عناصر الحق والخير والجمال وطرق الوصول إلى كل منها مستقلاً دون موجه أو معين؟ الحق لا، إنه بحاجة ماسة دائمة إلى العون الخارجي يأتيه من وحي صادق يحيط بما لم يحيط بعلمه، ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ورشده. ولقد كانت «فتنة العقل» المعاصرة أعتى وأشد من الغابرة حيث صادفت من المسلمين حالة ضعف، ومن حضارتهم حالة أفول، ومن فكرهم حالة أزمة وجود وركود فاستطاعت أن تجتاح عامة متعلميهم وجمهرة مثقفهم لتضعهم في معسكر جحافل التغريب لأمتهم، ولقد حاول كثير من الغياري والمخلصين الوقوف بوجه ذلك التيار، لكن محاولات الدفاع الجزئي كثيراً ما تجر إلى أخطاء أو انحرافات جديدة فبدلاً من تأكيد مبدأ التوازن وعرض المنهج الإسلامي بشموله وعمومه وإكاله وتوازنه وقاعدته العقيدية، وتوكيد منطلقاته ومسلماته وبيان غاياته انصب الدفاع على توكيد أهمية العقل، وتأويل أي نص حاول المغرضون أن يبينوا تعارضه، أو نفي صحته أو تعسف حمله على أبعد المحامل أو نحو ذلك مما يجعل الأمر كأنه معالجة مرض بدواء له مضاعفات تؤدي إلى أمراض أخطر وأعتى وأشد.

لقد حاول كثير من حملة الفكر الإسلامي في الماضي — نسأل الله لهم المغفرة — معالجة هذا الأمر والرد على من اتهموا الإسلام بمثل التهم الموجهة إلى الكنيسة من التقليل من شأن العقل وغمطه حقه، وإعلاء شأن الخرافة، وذلك حين واجهوا بيئة فكرية جامدة رفضت الاجتهاد وتشبثت بالتقليد، وأنكرت على العقل دوره وأخذت تعتبر الاجتهاد تهمة وإبداء الرأي أو الاجتهاد اقتحاماً للنار، وهدماً للدين. وكانت جيوش الأعداء تسرح وتمرح في بلاد المسلمين فيقابلهم العلماء بقراءة سورة يس وقراءة صحيح البخاري إذا لزم الأمر، في المساجد وعند أضرحة الصالحين؛ أما مواجهة العدو بالجهاد والاجتهاد فذلك قل المنادون به أو الداعون له.

وفي الوقت نفسه كان (العقل) في أوروبا يُعبد ويُتخذُ إلهاً خاصة بعد الفتوحات العقلية التي جعلت ملوك أوروبا الذين كانوا يهتمون بسلاطين آل عثمان ويدفعون لهم الجزية يمتلكون البحر والبر وتصبح كلمتهم نافذة على الجميع ومنهم حكام المسلمين وديارهم. لقد كانت الفلسفة العقلية تؤله العقل وتنادي بوجوب فتح معابد جديدة للإله المبدع الجديد — العقل — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي الوقت

نفسه تتعرض العقائد الإسلامية والتصور الإسلامي والمنهج الإسلامي لأشرس الحملات ويُتهم الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجاً بأنه المسؤول عن تخلف المسلمين، وتعطيل عقولهم وجهودهم^(٩)، وكان العلماء المنصرفون إلى فقه الحيز والنفاس وسدنة الأضرحة يؤكدون بتصرفاتهم ومقولاتهم هذه المعاني. في هذه الفترة الحرجة بكل تلافيفها، حاول كثيرون أن يواجهوا تلك الحالة بالتأكيد على اهتمام الإسلام بالعقل وبيان دوره في سائر جوانب الحياة الإسلامية واعتبار الاجتهاد العقلي حلقة من أهم حلقات المنهج الإسلامي وفي غمرة هذه المحاولة، وفي حمى تلك المعركة الدفاعية اضطر بعض هؤلاء — عفا الله عنهم — أن يجعلوا العقل ندًا للوحي، وأعلن بعضهم أن النص إذا تعارض مع العقل فيجب تأويل النص لينسجم مع العقل فوق هذا البعض بما وقع فيه الطوفي وغيره من تقديم المصلحة على النص والعقل على النص، ووقعوا في تأويلات كثيرة كما تجد بعض ذلك في تفسيره لبعض قضايا الغيب كالجن والملائكة وغيرها. وقد تأثر تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عمّ بهذه النظرة تأثرًا واضحًا، كما تأثر به تفسير تلميذه المغربي في جزء تبارك حتى صرح مرات بوجود تأويل النص ليوافق مفهوم العقل، فأبي عقل هذا الذي يحاكم النص إليه^(١٠)؟

إن المنهج الإسلامي كل لا يتجزأ وحلقاته متداخلة لا متقابلة، والاستغراق في الجزء يلهي عن الكل، وهناك ألوهية وعبودية تفرد الله تعالى بها وبسائر خصائصها. وعبودية ومخلوقية يشترك فيها كل من عداه وما عداه والعلاقة بين الله وخلقها علاقة الخالق بالمخلوق والوحي وحيه، والإنسان خلقه والعقل بعض أدواته ووسائله فهو مناط التكليف والفهم والإدراك والتنزيل في الواقع، والنص ضابط وموجه، ومرشد ومهيمن، ولا يتصور وقوع تعارض بينهما في الواقع ونفس الأمر، بل التعارض قد يقع حين يقع في ذهن الإنسان وعقله لنقص في استيعابه أو غفلة عن جانب، أو نقص في الوسائل والأدوات. واستكمال ذلك من شأنه أن يزيل التعارض الموهوم أو المفترض. وأيا كان فإن النص يبقى هو المرجع والأساس. ولا بد من حسن

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٩ وبنظر نقد سيد قطب محمد إقبال — رحمه الله — أيضًا.

فهمه على ضوء الواقع الزماني والمكاني والإطار اللغوي وسائر أدوات ووسائل فهم النصوص.

لقد سيطرت — نتيجة التطرف في فهم هذه القضية من قضايا المنهج — جملة من المفاهيم الخاطئة أدت إلى اختلال واضطراب حَلَقَاتٍ أُخرى من حَلَقَاتِ المنهجية الإسلامية كحَلَقَةِ اختيار الإنسان التي استبدلت بمفهوم الجبر والتوكل، وحَلَقَةِ السببية والتعليل لأنها بعض جوانب النشاط العقلي وقيمة الفعل الإنساني ومصدرها وغير ذلك.

ومنذ أن تبنى المعهد العالمي للفكر الإسلامي «إصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين قضية له يعمل من أجلها، ويجاهد لتحقيقها، وقضية المنهجية بكل حَلَقَاتِها تحتل موقع الصدارة من اهتمامات المعهد وجهوده فلو وفق المسلمون لإصلاح مناهج تفكيرهم لتيسر إصلاح ما عداها.

ولقد عقد المعهد ندواتٍ عديدة في إطار قضايا المنهجية دولية ومحلية، واستكتب الكثير من العلماء في هذا المجال ولا يزال يستكتب، وقد كتب في هذا المجال الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان كتابه: أزمة العقل المسلم، بل لقد كَرَسَ معظم محاضراته ودراساته لهذا المجال.

كما استكتب المعهد الأستاذ الدكتور محمد عمارة كتاباً في «معالم المنهج الإسلامي» صدر (١٤١١هـ/١٩٩١م) بطبعة مشتركة بين الأزهر الشريف والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ضمن برنامج للتعاون العلمي بينهما.

وها هو اليوم يقدم هذه الطبعة من كتاب الأستاذ الدكتور عبد الحميد النجار «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع»، وخاصة كتاب الدكتور النجار أنه مركز على تناول قضية «النقل والعقل». ولقد حاول المؤلف الفاضل في هذه الدراسة أن يعالج هذه القضية المنهجية وأثرها في مهمة الإنسان الكبرى: الخلافة وانعكاسها على الفعل الإنساني وقد وفق لمعالجة هذه القضية معالجة مركزة سلطت الأضواء على كثير من جوانبها. ونتمنى على الباحثين المسلمين الأكفاء أن يكملوا طريق هؤلاء الكتاب والمفكرين د. أبو سليمان و د. عمارة و د. عماد

الدين خليل، و د. النجار في معالجة سائر قضايا المنهج الإسلامي حتى يزال اللبس، وتتضح المعالم، وتظهر المحجة. وهذه الدراسات وإن مثلت جهود أصحابها وآراءهم واجتهاداتهم في هذه القضايا المنهجية لكن تراكماتها ستشكل أجزاء هامة في الحصيلة الفكرية والثقافية التي تشتد حاجة الأمة إليها لمعالجة أزمته الفكرية، وبناء نسقها الثقافي. فالتغيير المنهجي والتجديد والإصلاح لا يمكن أن يقوم إلا على فكرة أساسية هي الرجوع المباشر إلى منهج رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وسيرته دراسةً وتفهمًا، واقتباسًا وعملاً واستلهامًا لجميع أنواع السلوك ليكون الكتاب الكريم والسنة المطهرة والسيرة العطرة المحرك المباشر للفكر والسلوك في المجتمع ليستأنف المسلمون حياتهم الإسلامية. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

هيرندن — فيرجينيا

الولايات المتحدة الأمريكية

شعبان ١٤١٣هـ

فبراير ١٩٩٣م

د. طه جابر العلواني

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مقدمة الطبعة الأولى

شغلت قضية العقل والوحي الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً، ولا غرابة فإن الدين الإسلامي نفسه بقدر ما جاء يؤسس الحياة على دعائم الوحي، فإنه جاء يُعلي من شأن العقل، ويرفع من مقامه، ويجعل منه ظهيراً للوحي في قيادة الحياة. ومن ثمّة نشأ النظر الموازن بينهما، المحدّد لدور كلّ منهما في التعريف بالحق، وفي إلزام الإنسان به. وكلّما تعرّضت الثقافة الإسلامية لتحّد ثقافي فكري خارجي قائم على دعائم العقل نشط البحث في هذه القضية، وشهدت دفعاً جديداً واهتماماً بالغاً، وهو ما حدث لما دخلت الفلسفة اليونانية إلى دائرة الثقافة الإسلامية في القرن الثاني والثالث، حيث نشأت قضية التوفيق بين الحكمة والشريعة كأبرز خاصية من خصائص الفكر الفلسفي الإسلامي، وهو ما يحدث منذ بعض الزمن لما امتدت الحضارة الغربية إلى العالم الإسلامي، حيث طرحت قضية العقل والنص، وأصبحت من أهم القضايا التي يتناولها الناس بالبحث، ومنها نشأت تيارات فكرية مختلفة في نطاق الدائرة الثقافية الإسلامية.

ومحور القضية في القديم والحديث هو المناظرة بين طرفي الثنائية فيما يختص به كلّ منهما من مجال في إدراك الحق أولاً، وفي قيادة

حياة الإنسان ثانياً، وفيما إذا كان بينهما التداخل والتظاهر مما يؤدي إلى التوافق، أو التباين والتدابير مما يؤدي إلى التمانع والتلاخي. إلا أن القضية لما أثبتت قديماً كان المسلمون في موقع مكين حضارة وثقافة وفكراً، فلم يستطع المدّ الثقافي العقلي الوارد من الفلسفة اليونانية خاصة أن يُخلّ بميزان الثنائية إخلالاً مؤثراً ليكون في صالح العقل على حساب الوحي في قيادة الحياة، ووقف الأمر عند حد التوفيق بين الحكمة والشريعة الذي بلغ أوجه عند أبي الوليد بن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال». أما في العصر الحديث فإن الأمر اختلف عما كان عليه اختلاف تناقض، حيث وصل المدّ الثقافي العقلي الغربي إلى المسلمين وهم في ضعف حضاري شامل مما نشأت منه بوادر مخيفة حقاً للإخلال بميزان الثنائية في صالح العقل على حساب الوحي، وهو ما تمثل في أصوات ظلت ترتفع هنا وهناك من العالم الإسلامي منادية بقومية العقل على الحياة قومية مطلقة، وحسر مجال الوحي إلى ما يقارب الإسقاط.

ومما ينذر بالخطر في طرح هذه القضية اليوم أنها لا تطرح عن وعي بأبعادها العقدية والمعرفية فيتخذ لها من أسباب النظر وتلتمس لها من معدّات الطرح ما ينزلها في منزلتها الحقيقية التي يؤمن معها الوقوع في الزيغ، وما يضعها في سياق التأصيل المنهجي والفلسفي والمعرفي موضعاً يؤدي إلى إصابة الحق فيها بما لا يتناقض مع حقيقة الدين أساساً. ولكنها على العكس من ذلك تطرح بشيء من البساطة والخفة والانبثات، وهو ما يؤدي فيها أحياناً كثيرة إلى أفكار غريبة يظهر فيها بوضوح التعجّل والفجاجة.

إننا نسمع اليوم كلاماً كثيراً وأفكاراً غزيرة في قضية «العقل والوحي» التي غلب عليها اسم «العقل والنص»، ولكن هذا الكلام وهذه الأفكار على اختلاف مصادرها تخلو من التحليل العميق للبعد العقائدي والبعد

المعرفي لهذه القضية، والحال أنها ليست إلا فرعاً من تصور عقدي شامل يتعلّق بمنظومة متكاملة تبدأ من وجود إلهي، وتمر بوجود كوني وإنساني لتنتهي إلى علاقة بين الله والإنسان فيما أرشده به من وحي، وفيما زوّده به من عقل ليتحمّل به ذلك الوحي. ومن جهة أخرى فإنّ العقل في تعامله مع الوحي في صورته النصية يخوض تجربة فلسفية منهجية معرفية متعدّدة المناحي متشعبة المسالك، أنفق علماء أصول الفقه فيها الجهود الجبارة، وتركوا فيها الآراء القيمة الخالدة. وفيما شهد الفكر الإنساني من تطور في علوم المنهج وعلوم اللسان وغيرهما من العلوم المعرفية ما هو كفيل بإثراء هذه التجربة وتعميقها ودفعها إلى المزيد من النضج. فأين ما يقال اليوم من كلام وما يطرح من أفكار في قضية العقل والنص من هذه الأبعاد التي يتطلّبها البحث فيها في سياقها الضروري عقدياً ومعرفياً؟. إننا نكاد لا نظفر في ذلك بشيء ذي بال، وهو ما يخشى معه خشية حقيقية أن يؤول تناول العلاقة بين العقل والنص سواء من قبل المهزومين إزاء المدّ الحضاري الغربي، أو من قبل الحرفيين من المتحمسين للفكرة الإسلامية عموماً إلى ما يُجحف بالحقيقة فيها، فيؤول الأمر إلى إهدار النص، أو يؤول إلى إلغاء العقل، بل إن ذلك الإجحاف بدأ يظهر فعلاً وإن لم يؤل بعد إلى ظواهر غالبية تتصف بالعموم.

ولقد دعانا الإحساس بجلالة هذا الأمر: أهمية في ذاته، واستشعاراً لفداحة الضرر الذي يلحقه بالأمة في حالة الزيغ، وحرصاً على أن لا ينزلق الشباب الإسلامي خاصّة في مزالق السطحية والخفة، دعانا كل ذلك إلى أن نساهم بهذا البحث المتواضع في طرح هذه القضية، ولا نعتبر بحثنا هذا أكثر من تنبيه إلى ما نراه ضرورياً من نسق عقدي معرفي ينبغي أن تنزّل فيه قضية العقل والنص، أما النتائج والثمار فإنّ الطريق إليها يستلزم من الهمة والصبر والتعاون شيئاً كثيراً.

والله ولي التوفيق

المؤلف

تَمَهِيد

إن البحث في حياة الإنسان من جوانبها المختلفة لتحديد ما ينبغي أن تجري عليه تلك الحياة من أنماط تحقق له الخير والسعادة، لا يكون بحثاً موفياً بالغرض، محققاً للهدف إذا لم يتأسس على تصور مبدئي لمهمة الإنسان والغرض من وجوده، ذلك لأن تصرفات الإنسان الجزئية في شتى الميادين تظل مضطربة متنافرة بما قد يؤدي إلى أن يحبط بعضها بعضاً فتصير الحياة إلى البوار، وذلك إذا لم تكن مندرجة ضمن خطة تنتهي بهدف نهائي للوجود الإنساني يجعل تلك التصرفات كلها منخرطة في سياق موحد، تكون فيه على وضع من التآلف يحدوها إلى تحقيق ذلك الهدف النهائي.

وطبيعة الهدف الذي يوضع غاية لوجود الإنسان هي التي تكون محددة لمدى ما تكون عليه تصاريفه لحياته من تآلف، وما تتصف به من رشد، فإذا كان الهدف بعيداً، حُشدت الطاقات، وجمعت القوى في سبيل البلوغ إليه، وإذا كان قريب المنال صرفت أجزاء من الطاقات والقوى فيما يناقض تلك الأجزاء المحشودة لبلوغه، إذ حاجة الهدف غير داعية إليها، وذلك كمن وضع هدفاً لحياته حساباً

عسيراً في حياة بعد هذه الحياة على ما أنجز من عمران وما حقق من خير، ومن وضع هدفاً لحياته وغاية لها ما يناله من لذة يهدمها الموت، فإن الأول يعاير كل مناشطه بمعيار ذلك الحساب، فلا يجد نفسه موفياً بما يجب أن يكون، فيظل يكدح كدحاً بتوجيه كل جهوده في العمران والمعاملة فيما يجعله فائزاً في امتحان الحساب. وأما الثاني فإنه يجد هدفه قريباً، فإذا بجهوده الحياتية يصرف الجزء الزائد منها على الحاجة فيما يناقض الوجود الإنساني أصلاً، وفيما يطمس قيمة الإنسان ككائن تبوأ سيادة الكون بما أوتي من ملكات مميّزة، وليس ما نراه في عالم اليوم من جهود جبارة تبذل في تكديس وسائل الدمار على حساب الجوعى والمحرومين من بني الإنسان، ومن جهود أخرى لا تقلّ عنها ضخامة تصرف في وجوه اللذة الرخيصة المميّنة للضمير والعقل، ليس ذلك كلّه إلا شاهداً على أثر هذا الهدف القصير الذي وضع غاية لحياة الإنسان في صيرورة مصارف نشاطه إلى التناقض فيما بينها من جهة، ومناقضة كينونته أصلاً من جهة أخرى.

على أن تعيين الهدف السديد للوجود الإنساني ليس هو المشكلة الوحيدة في المسيرة الوجودية للإنسان، بل إن اختطاط مناهج للسلوك تكون محققة لذلك الهدف، ثمّ تنزيل تلك المناهج في واقع الإنسان لتعدّ مشكلة تتجاوز الأولى في التعقيد والاستعصاء. وكم من مجموعة بشرية تبنت أدياناً وفلسفات ومذاهب وضعت لحياة الإنسان هدفاً في قمة النبل، وفي غاية السمو، ولكنها انتهجت من طرائق الحياة على مستوى التصور أساساً، أو على مستوى التنزير ما أدبر بالناس عن ذلك الهدف السامي النبيل، وأركسهم في مهاوي الضلال، أو ليس أكثر الناس على مرّ العصور ينشدون على مستوى الأمل السمو والرفعة والخلود والسيطرة على الكون؟ ولكنهم كثيراً ما يفوزون بعكس ما ينشدون ويأملون، لأنه الواقع العنود، الذي هو المعبر الوحيد لمسيرة الوجود إلى الهدف المنشود، والذي تتم عبره ملحمة تلك المسيرة

متمثلة في تخطيط المناهج الحياتية وتنزيلها، فترشد أو تغوي بقدر ما تحسن من التعامل معه أو تسيء.

وقد جاءت الشرائع السماوية ضماناً إلهياً للإنسان في تحديد هدفه الوجودي، وفي تحديد المنهاج الكفيل بتحقيق ذلك الهدف، وليس الإسلام إلا الخلاصة الخاتمة لتلك الأديان جميعها، جاء يبين للناس في صياغة نهائية غاية وجودهم، وهي أن يكون الله قبلتهم يتبعون مرضاته، ويكذبون في تنفيذ أوامره، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، كما جاء يبين للناس منهاج الوصول إلى تلك الغاية، وهو منهاج الخلافة في الأرض في صورته القيمة الثابتة إلى الأبد، المتمثلة في التعاليم المنضبطة في القرآن والحديث.

إلا أن هذا الإرشاد الإلهي الخاتم الذي جاء يبصر الإنسان بغاية وجوده، كما يبصره بالمنهاج الخلافي المؤدي إلى تلك الغاية، لم يكن ليُعفي الإنسان من سعي ذاتي في سبيل تمثل ذلك الإرشاد ووضعه موضع التنفيذ، بل إن الخاتمية التي كانت خاصية ذلك الإرشاد، أضافت إلى الإنسان في مخاطبته به عبئاً تكليفاً ثقيلاً، حيث أصبح هذا الإنسان مطالباً بأن ينجز بعقله من تفهم الخطاب الإلهي، ومن تنزيله إلى مستوى الوقوع ما يكون محققاً للغاية على مرّ الدهر، إذ النبوة الهادية المصححة للمسيرة الإنسانية قد تعطلت بوفاة محمد ﷺ، وأنيطت بذلك عهدة الهداية والتصحيح إلى العقل البشري وفق الإرشاد الذي جاء به الدين القيم.

ويتحصل مما تقدم أن الغاية الوجودية للإنسان، والمنهاج المؤدي إليها اختص بالإرشاد إليهما الوحي الإلهي، وأوكلت مهمة الفهم والإنجاز فيهما إلى العقل البشري، وهو التكليف الذي رتب عليه

المثوبة في حالة الفوز، والعقوبة في حالة الخسران، فكيف يكون مصير الإنسان فيما ينتهجه من منهج، وما يهدف إليه من غاية رهين اشتراك بين وحي إلهي وبين عقل بشري؟

إن هذه الثنائية هي التي كان الفكر الإسلامي فيما أثمر من علوم متنوعة ممحّضاً للجواب عليها، مجتهداً في تحقيقها، فليست تلك العلوم كلّها إلا شروحاً عقلية للوحي في أبعاده المختلفة، ما تعلق منها بالغيب وما تعلق بالشهادة، وتنزيلاً لذلك الوحي في واقع الحياة بحسب ما تقتضيه مستجدّات ذلك الواقع. وليست تلك الاختلافات الفكرية الواقعة بين المسلمين متمثلة في المذاهب والفرق والطوائف إلا راجعة في أغلبها إلى معنى ترتيبي في ثنائية الوحي والعقل بحسب ما يحتل كل منهما من منزلة في إنجاز المنهج الخلافي المؤدي إلى غاية الوجود الإنساني، فإن ما يبدو ظاهرياً من مفارقة بين طرفي هذه الثنائية أغرى بالاختلاف في تقدير الدور المعهود به إلى كل منهما انطلاقاً من تقدير لطبيعتهما ولخصائصهما الذاتية.

لقد انتظمت أنظار الفكر الإسلامي في هذه القضية في قطبين رئيسيين: قطب نصي، وقطب عقلي. أما القطب النصي فهو الذي اعتبر المتممون إليه أن تعاليم الوحي هي المحدّد الوحيد في كل الأزمان للمنهج الخلافي دون أن يكون للعقل أي دور سوى التنزيل المباشر لظواهر النصوص في حياة الناس على وتيرة تكاد لا تختلف باختلاف الظروف إلا بالقدر اليسير.

على أن هذه الوجهة تردّدت بين درجات من الحرفية متفاوتة لعل أقصاها تلك الوجهة التي تختصر أوجه التصرف في الحياة الإنسانية فيما يفني به ظاهر النص إلغاءً لكل ما فيه فسحة للعقل ليستنبط وجوهاً مستجدّة في تحقيق الخلافة بناء على التأويل، واعتباراً للمقاصد فيما

لم يرد فيه نصّ مباشر، وهو ما آل إليه الحشوية والظاهرية^(١) ونفاة القياس وغيرهم من الحرفيين حتى قال بعضهم قديماً: إن الوحي لا يسعه مبدأ إيماني في تصور الإله الذي هو غاية الوجود يقوم على المفارقة بين الله والعالم المادي تنزيهاً لله عن كل مشابهة وتجسيم لأن هذا الوحي جاء في نصوصه بما يفيد المشابهة والتجسيم في حق الله تعالى. وقال بعضهم حديثاً: إن الوحي لا يسعه أن يحقّق للإنسان خلافته بوجوه الاختراعات العلمية الحديثة لأن هذه الاختراعات لم يرد لها ذكر في نصوص الوحي.

وأما القطب العقلي فهو الذي اعتبر المتممون إليه أن للعقل دوراً ذا بال في إنجاز الخلافة انطلاقاً من تفهم الوحي ذاته وتمثله، وانتهاء إلى بناء وجوه من تصرفات الإنسان لا يسعها من الوحي إلا تأويل لظواهر النصوص، أو اختراع على أساس المقاصد. على أن هذه الوجهة ترددت هي أيضاً بين درجات من العقلانية لعلّ أقصاها تلك الوجهة التي انتهت إلى إهدار الدلالة اللغوية التي هي قناة الوحي إلى الناس، وهو ما انتهى إليه الباطنية وغلاة المؤولة والقائلون بالظرفية الزمنية للأحكام النصية، حتى قال بعضهم قديماً: إن الإنسان يسعه أن يمارس الخلافة في تحلل من وجوه العبادة من صلاة وزكاة وحج وغيرها إذا ما بلغ درجة معينة من الرقي الروحي، وقال بعضهم حديثاً: إن العقل يسعه أن يلغي الوحي فيما جاء به صريحاً من أوجه التحديدات في التنظيم الأسري والاجتماعي والاقتصادي.

إن هذا التقابل المفرز في الفكر المنتمي إلى الإسلام بين اختزال لدور العقل إلى ما يقارب الإلغاء، واختزال لدور الوحي إلى ما يقارب

(١) لا نقصد باستعمالنا للظاهرية في هذا البحث مذهب داود الظاهري وأتباعه كمذهب فقهي ولكننا نقصد فقط النزعة الحرفية في فهم النصوص.

الإهدار هو الذي يدعو إلى أن تُولى مشكلة العلاقة بين العقل والوحي في إنجاز منهاج الخلافة الأهمية البالغة في سلم المشاغل الفلسفية العقدية الإسلامية، إذ هي التي يتوقف عليها سداد المسيرة الإنسانية عبر واقع الحياة في إفضائها إلى غاية الوجود، وأيما انحراف في معالجتها قد يؤول إلى خسران في السعي إلى الغاية كذلك الخسران الذي أصاب الأمة الإسلامية لما جمدت على ظاهر الوحي، وصدّت العقل عن أن يثمر وجوهاً من الإبداع في تصريف الحياة استرواحاً من معاني الوحي ومقاصده، وكذلك الخسران الذي أصابها أيضاً بما تفشى من نزعة التأويل المفرط الذي وجد في ظلّه التصوف الغالي مناخاً صالحاً للانتشار فأثمر القعود وتدمير الذات وتعطيل الأسباب، والذي يتربص بها اليوم في الدعوة الهادفة إلى نصب العقل بديلاً عن الوحي .

وقد كانت هذه المشكلة قديماً محطاً للأنظار فيما عرف بقضية «العقل والسمع» أو «الحكمة والشريعة»، كما كانت محطاً للأنظار حديثاً فيما عرف بقضية «العقل والنص». ومن المهم أن نلاحظ أن قضية العقل والوحي تشتدّ ظهوراً في ساحة الفكر الإسلامي، وتحتدّ طرحاً بين الناس في تلك الظروف التي يواجه فيها الإسلام الحضارات القائمة على العقل، فقد حدث هذا حينما ترجم الفكر اليوناني إلى اللغة العربية، وحدث أيضاً لما غزت الحضارة الغربية الحديثة المجتمعات الإسلامية. وقد كانت هذه الطبيعة في طرح القضية المتولدة من الظروف التي طرحت فيها منشأ - فيما نحسب - لكثير من الأخلال التي حفت بمعالجة مشكلة العلاقة بين العقل والوحي في إنجاز الخلافة .

ولعلّ من أبرز تلك الأخلال ما اتصفت به محاولات المعالجة لهذه الإشكالية من ارتجالية وانفعال، فقد كانت إثارته على مستوى تنظيري

فلسفي ناشئة من انبهار بالحكمة اليونانية انبهاراً أدى إلى محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة على أيدي الفلاسفة الإسلاميين المشائين مما أدى إلى نزعة مقابلة ترفض الحكمة اليونانية، وترفض من ورائها العقل ظهيراً للنوحي في توجيه الحياة. ونفس الأمر تجدد في العهد الحديث حيث أثرت القضية مجدداً تحت وطأة الانبهار بالحكمة الغربية الجديدة، حيث ظن البعض أن العقل الذي صنع هذه الحكمة هو الكفيل وحده بترشيد الحياة، وقابلت هذه الواجهة نزعة للرفض تقصي العقل أو تكاد من الإسهام في إنجاز المنهج الخلافي حفاظاً على قيومية الوحي، وخوفاً من أن يأتي عليه العقل بالإلغاء. وهكذا اختفى في أغلب الأحيان في خضم ردود الأفعال المعالجة الموقفة لعلاقة العقل بالوحي بما يؤدي إلى السداد.

إن الظروف التي حفّت ببحث هذه القضية لم تمكن من طرحها في نسق تأسيلي ضمن منظومة عقدية فلسفية متكاملة، بل كان طرحاً مجزئاً في الغالب، مفتقراً إلى التأصيل في نطاق دائرة مترابطة الحلقات من القضايا العقدية. فإذا كان الهدف من معالجة العلاقة بين العقل والوحي هو تحديد ما لكل منهما من دور في إنجاز مهمة الخلافة لتحقيق الغاية من الوجود الإنساني، فإن السياق يقتضي أن تطرح هذه القضية ضمن تأصيل عقدي لسلسلة من القضايا التي يبدو أنها متوقفة عليها، ابتداء بقضية الوجود الإنساني عموماً: مأتى وطبيعة وغاية، ومنزلة في الكون، ووظيفة معهودة. وعلى ضوء معالجة هذه القضايا، وبوحي من نتائج البحث فيها يمكن أن تطرح مسألة العقل والوحي على أرضية أصلب، وفي سياق أبين.

ولكن الفكر الإسلامي عموماً لم يعط هذه المسائل حظها من التحليل والمعالجة، ولئن بحثت أجزاء متفرقة في أثناء قضايا أخرى، فإنها لم تحظ بمحور نظيري مستقل، لا في كتب العقيدة ولا في

كتب الفلسفة إلا أن تكون محاولات فردية رائدة لم تؤل إلى أن تصبح همماً عقدياً فلسفياً مشتركاً، كتلك المحاولات التي قام بها الراغب الأصبهاني في كتابه: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» و«تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، وتلك المحاولات التي قام بها ابن العربي الصوفي في تحليلاته عن الإنسان الكامل في مختلف مؤلفاته^(٢).

وإذا تأملنا في تلك التطرفات التي وقعت فيها الأنظار المتناقضة في تقدير الدور المنوط بكل من الوحي والعقل في ترشيد الحياة ألفيناها ناشئة في الغالب من غياب التحليل الوافي لقضية الوجود الإنساني بعناصره المختلفة. فالذين اقتصروا على ظاهر الوحي وأقصوا العقل في مجال الإبداع كانت وجهتهم ثمرة لقصور في تقدير قيمة الإنسان في الكون وتقدير ما هو مطلوب منه من دور تكميري مادي فيه كجزء من مهمة الخلافة يفضي إلى الرضوان الإلهي كغاية للوجود، حيث ظنوا أن هذا الرضوان لا يُنال إلا بما هو منصوص عليه ظاهرياً من أساليب التعبد، والحال أن صور التعبد عبر الممارسة المادية والروحية المؤدية إلى الرضوان أوسع من أن تحصرها ظواهر الوحي المنصوصة. والذين أعلوا من شأن العقل فيما يشبه أن يكون إلغاء للوحي كانت وجهتهم ثمرة لقصور في تقدير الحجم الحقيقي لقدرات الإنسان وإمكاناته الحقيقية التي يجابه بها الواقع الاجتماعي في تعقيد وخفاء علله وأسبابه، والواقع الكوني في استعصائه وعمق أغواره، فقد ظنوا أن الإنسان هو سيد الكون باعتبار عقله، وأن غاية وجوده ربما انتهت عند السيطرة على الكون وامتلاك ناصيته عبر الصراع المادي معه.

ومن ذلك يبدو أن قضية «العقل والوحي» لا يمكن أن تطرح طرحاً صحيحاً إلا ضمن نسق عقائدي يتناول بالتحليل تقدير الإنسان وجودياً

(٢) نقصد بهذا مجرد اعتناء ابن العربي بالإنسان، لا تزكية آرائه فيها، فإن في كثير من تلك الآراء مغالاة وانحرافاً.

من حيث قيمته الذاتية، ومنتزته في الكون، والمهمة المعهود إليه إنجازها، والغاية التي يسعى إليها ذلك الإنجاز، فليس الوحي والعقل إلا وسيلتين للتعريف بالحقيقة فيما ينبغي للإنسان أن ينتهج من أنماط في الفكر والسلوك ليتعامل مع الكون بما يؤدي إلى غاية وجوده، فكل بحث فيهما من هذا الوجه يرتبط بشديد الارتباط بالبحث في حقيقة الإنسان ذاته، وفي وظيفته وفي الغاية من وجوده. وهو ما حاولنا في هذه الدراسة أن يكون منطلقاً تأصيلياً لطرح هذه القضية، قضية الوحي والعقل.